(١)

الحقوق المتكافئة في خطبة الوداع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا}.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، نصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور صلوات ربي وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

ففي العام العاشر من الهجرة خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) في جمع من الصحابة لأداء فريضة الحج ، وفي صعيدِ عرفات قام النبي (صلى الله عليه وسلم) خطيبًا بخطبته الجامعةِ، والتي تعد ببلاغة كلماتها وفصاحة ألفاظها وما تضمنته من معان من جوامع كلمه (صلى الله عليه وسلم).

وإذا تأملنا خطبة الوداع بكل ما فيها من معانٍ وقيم ، وأمعنا فيها النظر وجدنا أنها قد تطرقت إلى جوانب دقيقة من حياة الإنسان ، فهي تعد أعظم وثيقة تاريخية في مجال حقوق الإنسان- بغض النظر عن دينه أو معتقده أو لونه أو جنسه- ، ويأتي في مقدمة هذه الحقوق حق الحياة ، والحفاظ على المال والعرض ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأعراضكم عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ

هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ) ، فلاَ يحلُّ لإنسان أَنْ يعتدِيَ علَى أخيهِ بأي نوع من أنواع الاعتداء ، أو أن يتعرضَ لهُ بأي لون من ألوان الإيذاءِ ، لقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):(كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ)، فقد حرم الإسلام الدماء كل الدماء والأموال كل الأموال، والأعراض كل الأعراض دون استثناء أو انتقاء، فعندما حرم الإسلام قتل النفس لم يحرم قتل النفس المؤمنة فحسب أو المسلمة فحسب أو الموحدة فحسب ، إنما حرم قتل النفس كل النفس وأي نفس فقال سبحانه وتعالى :{ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} .

فمن شدة عناية الإسلام بحفظ الدماء جعل الاعتداء على نفسٍ واحدةٍ اعتداءً على أنفس الناس جميعًا، قال تعالى:{فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}، وقد توعد الحق سبحانه وتعالى على ذلك بأشد أنواع العقاب في الدنيا والآخرة ، فقال سبحانه :{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}، بل إن الإسلام نهى عن مجرد التخويف والترويع للآمنين ، يقولُ نبيُّنَا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):(لا يَحِلُّ لمسلمٍ أنْ يُرَوِّعَ مسلمًا)، كما حرَّم الإسلام

الاعتداء على غير المسلمين ممن لهم عهد وذمة وشدد على ذلك ، تأسيسًا لمبدأ التعايش السلمي بين البشر ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) .

وكما دعا النبي (صلى الله عليه وسلم) في خطبة حجة الوداع إلى حماية الدماء دعا أيضا إلى حماية الأموال وصيانتها ، وحرّم الاعتداء عليها ، فَقَالَ: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ) ، ولقد حذر القرآن الكريم من الاعتداء على الأموال غصبًا ، أو سرقةً ، أو احتيالا ، فقال تعالى:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}.

ومن المبادئ الإنسانية العظيمة التي أرست قواعدها خطبة الوداع حرمة انتهاك الأعراض واستباحتها بالقيل والقال والغيبة والنميمة والظن والبهتان، لذا جمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين حرمة المال وحرمة الدم والعرض في سياق واحد حين أعلن (صلى الله عليه وسلم) هذا المبدأ بقوله: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ).

ولقد عُني الإسلام بالأعراض فصانها وحرم الاعتداء عليها ، بالإيذاء

أو النظر أو القذف ، ومن أجل الحفاظ على الأعراض : حرم الله (عز وجل) الزنا ، ونهى عن القرب من الوسائل المؤدية إليه ، فقال سبحانه:{وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً}.

كما نهى الإسلام عن مجرد إيذاء الآخرين باللسان ، فحرم الله (عز وجل) السخرية ، والهمز واللمز ، وأن يعيب المسلم أخاه أو ينتقصه، وحرم الغيبة والنميمة ، وحرم القذف بالفاحشة، ولو تدبَّر الناس هذه المبادئ التي جمعتها خطبة الوداع لَمَا اعتدى أحد على أحد ، ولَمَا سُفِكَت الدماء، ونُهبت الأموال ، وسُرقَت ، ولَعاشَ الناس عيشةً هنيئةً فيها سعادتهم الدُّنيوية قبل الأُخرويَّة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن اهتدى .

من المبادئ الإنسانية التي دعا إليها نبينا (صلى الله عليه وسلم) في خطبة الوداع مبدأ المساواة بين جميع أفراد الأمة ، حين قال : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى)، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ... }

وقد رسَّخ النبي (صلى الله عليه وسلم) لمبدأ المساواة عمليًّا بين جميع أفراد الأمة في قصة المرأة المخزومية ، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ ، فَقَالُوا : وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا).

إن مبدأ المساواة مبدأ شرعي أصيل وقيمة إنسانية راقية تحقق التوازن في المجتمع ، فإذا انتهك هذا المبدأ بين أفراد الأمة عمَّت الفوضى وحل الهلاك كما حل بالأمم السابقة.

ومن الأمور التي أسس لها النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أيضًا في حجة الوداع: الحقوق المتبادلة بين الزوجين، مبينًا ما للمرأة من حقوق وما عليها من واجبات ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ...، إِنَّ لَكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ ، فَلاَ يُوَطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلاَ وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ).

فالحقوق المتبادلة بين الزوجين مضبوطة بالأمر بحسن العشرة وتحقيق المودة والرحمة بينهما: قَالَ تَعَالَى:{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}.

فبالحقوق المتكافئة وإرساء مبدأ الحق والواجب يستقيم أمر الفرد والمجتمع ،فلو أن كل إنسان أدى الذي عليه على الوجه الذي يريد أن يحصل به على حقه لاستقام الأمر بين الزوجين ، بين المعلم والطالب، بين العامل وصاحب العمل ، بين الفرد وأسرته ، وبينه وبين المجتمع، مما يؤدي إلى الراحة والطمأنينة والاستقرار والتقدم والرقي.

وأخيرًا نؤكد على فضل صيام يوم عرفة حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم):(صَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ يُكَفِّرُ سَنَتَيْنِ مَاضِيَةً وَمُسْتَقْبَلَةً، وَصَوْمُ عَاشُورَاءَ يُكَفِّرُ سَنَةً مَاضِيَةً)، وعلى شعيرة الأضحية، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): عندما سئل عن الْأَضَاحِيُّ؟ قَالَ:(سُنَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا تُقُرِّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ النَّحْرِ بِشَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ، وَأَنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلَافِهَا ، وَأَنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ فَيَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا).

نسأل الله عز وجلّ أن يوفقنا في هذه الأيام المباركة لصالح الأعمال، وأن يجعل مصرنا العزيزة أمنًا أمانًا سخاء رخاء وسائر بلاد العالمين.